كيف يفكر أبوبكر البغدادي؟

د. رضوان السيد

كاتب وأكاديمي وسياسي لبناني وأستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية.

يسعى "الثوران" الإسلامي للوصول إلى السلطة منذ عدة عقود، والهدف من وراء ذلك هو استعادة الشرعية الدينية للدولة والمجتمع.

مرت هذه الفكرة حتى تبلورت بأربع مراحل، مرحلة الجهاد أو الهجرة بعد أن لم تَعُدْ الدار دار إسلام، ومرحلة التنظير لافتقاد الشرعية وإنشاء جمعيات وجماعات الهوية، ومرحلة تصور برنامج "النظام الكامل" من الحاكمية إلى تطبيق الشريعة وإقامة الدولة، ومرحلة الصراع داخل التنظيمات ومع المحيط على صيغة الدولة وطرائق الإقامة والتحقيق.

التحويل المفاهيمي

إنّ أهم ما أُنجز قبل حرب أفغانستان وخلالها تصوُّر إمكان إقامة الدولة بالجهاد أو القتال، وليس الشراكة أو الانقلاب أو التسلُّل كما ظلَّ الإخوان المسلمون يتصورون لعدة عقود. وقد استلزم الوصول لهذا الاقتناع إجراء التحويلات المفهومية داخل المفاهيم الإسلامية الأساسية الكلامية والتاريخية، والتي تتضمن أو تستلزم تقديراً للموقف الحاضر في العالم المعاصر، يعتبر أن الاستعمار والتغريب دمرا ديار المسلمين، وأن الجاهلية استولت على العالم وعلى المسلمين، ويرى ضرورة الدولة لاستعادة النظام الشرعي أو الكامل، وأخيراً اتباع السبيل الجذري لإحقاق ذلك.

ومن المهم على أثر تشكل جمعيات وجماعات الهوية لمكافحة التغريب ملاحظة أمرين اثنين متلازمين: اليأس من العالم الحديث ومما اعتُبر "تلاؤماً" أو استسلاماً من جانب "التقليد" الإسلامي الجامد، سواء في حياة المجتمعات أو في تطورات أنظمة الحكم.

والأمر الآخر: ارتفاع منزلة الدولة والنظام السياسي في التفكير إلى أن تصبح ركناً دينياً، أو ضرورةً لإقامة الدين، وما لا يتمُّ الواجب إلاّ به فهو واجب. ولذلك أيضاً صار الوصول للسلطة أو الاستيلاء عليها أو إقامة سلطة بالقوة ضرورةً من ضرورات إحقاق الدين.

إنّ التحويلات المفهومية الصاعقة هذه، جرت خلال عقودٍ منذ عشرينيات القرن الماضي. ولم يقتصر القيامُ بها على أهل الحزبيات والجمعيات، بل شملت أوساطاً واسعةً من مثقفي الصحوة ومفكريها. وقد استمدت قوتها الأولى من كراهية السلفيات الجديدة للتقليد الإسلامي القديم من جهة، وللحداثة الهاجمة من جهةٍ ثانية.

وقد تعاصر ذلك مع ظهور الذاتيات الوطنية المحدَّثة والمناضلة ضد الاستعمار. ولذلك لقيت الأمجاد الإسلامية القديمة، ولقي التفرد الإسلامي تقريظاً هائلاً، ليس من جانب الإحيائيات الإسلامية الصاعدة وحسب؛ بل ومن المثقفين المدنيين الوطنيين الذين أرادوا الانطلاق من المفاهيم الغربية كي يستقلوا عن الغرب بالثقافة الوطنية الذاتية، ويشاركوه في الوقت نفسِه بالدول الوطنية الناهضة.

ومع البدء بهذه التحويلات المفهومية، ظهر التفكير في البدائل التي تُوصِل إلى استعادة الشرعية والنظام الكامل، ورمزه الخلافة، ولكنْ ليس أي خلافة، بل خلافة الراشدين بالذات، بحسب صورتها المثالية في أذهان العامة. وتأتي ضرورتها من ضرورة استعادة الشرعية باستعادة الدين. فالإمامةُ هنا صارت مقدَّسةً ليس بسبب قدسية آل البيت وعلاقتهم الخاصة بالله ورسوله كما عند الشيعة الإمامية؛ بل بسبب حيوية الوظيفة التي قامت وتقوم بها للدين.

ولأن الإحيائيات والأُصوليات طهورية

Puritan، فما كان يمكن أن ترفع الخلافة إلى مرتبة الركن الديني من دون شروط فقط؛ بل قالت إنها خلافةٌ على هدْي النبوة، ولا تستوفي الشروط غير خلافة الراشدين. وبعد اكتمال الصورة التي صارت شبه إجماعية ـ للأسف ـ في الفكر الإسلامي الصحوي وغير الصحوي ولأسبابٍ مختلفة، جاء الإعلان عن القطيعة، وبدأت الحملة للتغيير الجذري في كتب سيد قطب، خاصة دليله العملي للثورة القاطعة: معالم في الطريق. ثم جاءت حرب أفغانستان لتشكّل نموذجاً جديداً لإقامة الدولة بعد إزالة الجاهليتين: التقليدية الكلاسيكية، والدولة الوطنية الحديثة، في صراعٍ مع طرفي الحداثة الجاهلية: السوفييت أولاً، ثم الأمريكان ثانياً.

تقسيم البغدادي لأهل السنة

ينتمي أبوبكر البغدادي، بل والزرقاوي من قبل، إلى مرحلة ما بعد حرب أفغانستان وما بعد القاعدة إذا صحَّ التعبير. وهي مرحلةٌ ما بعد أفغانية لسببين: الانتماء الكامل للسلفية الجهادية الجديدة، وانتهاجها مسالك القطيعة الكاملة والإبادية أحياناً مع المجتمعات والدول. فالزرقاوي تلقّى تعليماً سلفياً على أيدي شيوخ الدعوة بالأردنّ. والبغدادي درس الإسلاميات والشرعيات ببغداد وصولاً للدكتوراه، في زمن تسيطر فيه على التعليم الإسلامي العالي السلفيات والإخوانيات المتداخلة.

والسلفية الجديدةُ هذه - بالإضافة إلى تشددها وطهوريتها - كانت قد تخلصت من مبدأين رئيسيين في السلفية الوهابية: طاعة ولي الأمر، وتحريم الخروج على الجماعة، وسفك الدم بداخلها. ولذلك فبقدر ما كانت التحويلات المفهومية التي أجراها الإخوان ومناصروهم قاسيةً على الإسلام التقليدي بقدر ما صارت قاعديات ما بعد القاعدة ناقضةً لذاك الإسلام ومنشقّةً عليه.

ظهرت النزعةُ العدميةُ لدى الزرقاوي والبغدادي من بعده لعدة جهات: رفع درجة العداء للشيعة إلى مستوى العداء للأمريكيين، واستحلال دماء وأموال مَنْ يتعاون مع الأنظمة بسوريا والعراق.

لقد شاع منذ العام 2013 أن الداعشيين يملكون مصطلحاً للحالة التي ينبغي استحداثها من أجل الوصول لإقامة دولة الخلافة. والمصطلح هو: إدارة التوحُّش، الذي يعني بعث الرُعْب في نفوس وتصرفات ثلاث جهات هي أهل الدار التي يريدون إقامة الدولة عليها. والشيعة والإيرانيون الذين ينافسون مشروعَهم للخلافة بمشروعهم للإمامة. والأمريكيون والغربيون الذين يُعادون المشروع لكراهيتهم للإسلام، وتعاونهم مع إيران في الاستيلاء على أهل السنة واضطهادهم واستعبادهم.

ألا يخشى البغدادي ومعاونوه نتيجة هذه الوحشية أن ينفر من خلافته أهل السنة قبل غيرهم؟ يقسّم البغدادي المسلمين إلى ثلاثة أقسام: سكان المدن، وسكان الأرياف (الفلاّحين)، والقبائل والعشائر. أما سكان المدن فهم أهل لهوٍ وترفٍ، ولا مانع لديهم

> ظهرت النزعةُ العدميةُ لدى الزرقاوي والبغدادي من بعده لعدة جهات: رفع درجة العداء للشيعة إلى مستوى العداء للأمريكيين، واستحلال دماء وأموال مَنْ يتعاون مع الأنظمة بسوريا والعراق.

من العيش في ظل أي حاكم أو أي نظام ما دامت مصالحهم التجارية وراحتهم الحياتية لا تتعرض للإزعاج؛ فهم يملكون قيماً بديلةً ومفهوماً آخر للحياة. ولذا ما ثارت حلب ولا ثارت دمشق على الأسديين. وهؤلاء سيخضعون للدولة الإسلامية من دون مقاومة، ويمكن ضبطهم بواسطة تنظيماتٍ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القسم الثاني أو الفئة الثانية هم الفلاّحون، وهؤلاء محافظون متدينون ومُسالمون، وسيكونون رعايا مخلصين للدولة، وإنما ينبغي إزالة بعض البِدَع الصوفية في أوساطهم.

أما الفئة الثالثة والمتمثلة في القبائل والعشائر في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية واليمن؛ فهم أهل الدعوة وأهل المشاكل في الوقت نفسه، لأنهم يقاتلون تحت لواء "العصبية" لشيوخهم في العشيرة وفي الدين، وفي الوقت نفسه مستعدون للإصغاء لإغراءات الآخرين بالمال أو بالسلطة. وفي الواقع فإنّ "إدارة التوحش" لهذه الجهة هدفُها "ضبط" العشائر وليس إبادتهم أو تهجيرهم. فالعصبيةُ مذمومةٌ في كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، لكنها ضروريةٌ في هذه المرحلة لنُصرة الدعوة والدولة، كما ذكر ابن خلدون عن العرب.

من الضبط إلى الإبادة

إنّ هذا الكلامَ أو البرنامج للتعامل مع "فئات" أهل السنة نُقل عن البغدادي، ويُنسبُ أيضاً للزرقاوي، بيد أنّ ما حصل مع عشائر الشعيطات بسوريا، والبونمر بالعراق، يتجاوز مسألة "الضبط " إلى حدود الإبادة؛ بما في ذلك النساء والأطفال. ولو تابعنا النقاشات التي جرت بشأن ذلك في صفوف فِرَقهم المختلفة، لشعرنا بالهول الهائل الذي سقط فيه شبانٌ كثيرون. هناك نقاشات حول حكم قتل "أطفال المشركين"، وهل ينبغي قتلهم أو استحياؤهم لتنشئتهم على الإسلام! أما المشركون فهم الشعيطات والبونمر ومَنْ في حكمهم، ممن رفضوا البيعة أو قاتلوا مع خصوم الدولة من الصفويين والنصيرية.

إنّ المسألة ليست فقط في هذه الوحشية التي تُمارسُ عَلَناً وتخرّب الدول والمجتمعات؛ بل هي في الأساس في تمكُّن الإحيائيين المسلمين من حزبيين وغير حزبيين من رقبة الدين إن لم يكن من رأسه فعمليات تحويل المفاهيم عبر خمسين أو ستين عاماً بداخل التفكير الديني الإسلامي، بدءاً بالإسلام كدين ودولة، ومروراً بتسمية القتال بالداخل جهاداً، ووصولاً لإدارة وإرادة التوحش من أجل إقامة الدولة؛ كلُّ ذلك يجعل مهمة إنقاذ الدين وإنقاذ المجتمعات والدول ضرورةً وجودية. فالمسألة مسألة انشقاق قاتل بداخل الدين، وينبغي مكافحته بكل السبل، وأهمها التصدي لعمليات تحويل المفاهيم أي عمليات تحريف الدين، وصيرورة الإسلام ديناً قاتلاً.

ما استطاع القاعديون والداعشيون وأشباههم الاستيلاء على السلطة في دولةٍ سنية كبرى، لكن أشباههم استطاعوا ذلك في إيران، وزاد ذلك من احتدام المحنة والفتنة في العالمين العربي والإسلامي، وبذلك هجمت الأصولية الطائفية الإيرانية واستتبعتها أصولية مقابلة تستثير الغرائز والطائفيات في الدول والمجتمعات العربية والإسلامية، ووقعنا بين فكرتين وممارستين قاتلتين، كلتاهما باسم الدين.